الأَديبْ و المُفكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْدْ

إرتقاء الإنسان

الحلقة الثالثة

شيء وراء التطور العلمي

الظاهرة التي تلفت نظر المراقب لمسيرة الفكر المعاصر والقادم إلينا من الخارج بصورة خاصة هي توكيد المؤرخين والمنظرين من الحضارة العصرية بأن المسيرة العلمية المادية هي وحدها التي حققت وتحقق ارتقاء الانسان.

والجدير بالذكر أن الدكتور جاكوب برونوفسكي صاحب كتاب ارتقاء الانسان الذي تعرضنا له في حلقات ثلاث سابقة يكرر القول بأن جوهر الارتقاء هو في قصة العلم.

والرجال الذين يمثلون المسيرة العلمية في رأيه هم المتعاملون مع الطبيعة إبتداءً من العصور الخالية التي تخيل برونوفسكي بأن أول مرحلة تحضرية ظهرت هي مرحلة الزراعة وما تتطلبه من الاستقرار في مواطن معينة وبالتالي ما تقتضيه من نشوء المدينة . ثم تتابعت المراحل الأخرى في نظره حيث برزت على صورة علمية متعددة منها اكتشاف النحاس فالبرونز فالحديد وبالتالي ظهور فلسفة العدد وعلم الفلك ثم الفيزياء التي تطورت حتى بلغت مرحلتها الذرية ثم علم الحياة وما تفرع عنه من علم الوراثة وغيره من العلوم.

وعلى ذلك فان شواهد الحضارة في رأيه هم المزارع الأول والبناء والمهندس والطبيب والرياضي والفلكي وغيرهم ممن نوه بأسماء المشهورين منهم وعلى رأسهم كوبرنيكوس وكيلر وغاليلي ونيوتن وداروين ووالاس وأينشتاين ورذرفورد ونيلزبور.ولم ينس الاشارة السريعة إلى العمارة العربية .

****

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

هذه هي المعالم الحقيقية لظاهرة ارتقاء الانسان عند برونوفسكي ومن حقنا هنا أن نتساءل ونحن نواجه ظاهرة تتابع الحضارات البشرية عن حقيقة العلاقة بين التطور العلمي وبين الارتقاء الانساني لنأخذ مثالاً قديماً هو حضارة الفراعنة التي سادت ثم بادت بعد عدد من القرون فالملاحظ أن هذه الحضارة قد حققت انجازاتها بحماسة المؤمن وشجاعة المغامر دون أن يكون عند بناتها أي معرفة علمية مسبقة. أما العلوم التي نسبت إلى أصحاب هذه الحضارة فقد كانت حصيلة النهضة التي تحققت . وبمعنى آخر لم يكن

التطور العلمي سببا لهذه النهضة بل كان نتيجة لها . وعندما بدأت هذه الحضارة بالانهيار وراحت مؤسساتها تتساقط واحدة وراء الأخرى لم تستطع العلوم القائمة أن تحميها من السقوط وأن تحول دون تهافتها أمام الزمان .

****

فإذا انتقلنا إلى الحضارة اليونانية واجهتنا الظاهرة نفسها فالتاريخ يخبرنا بأن اليقظة الفكرية والرغبة في اكتشاف المجهول والسعي إلى استيعاب المزيد من حقائق المكان والزمان قد تحققت كلها بعد أن لم يكن في تراث أصحابها غير بعض الأساطير والأناشيد التي تنتظمها والأقوال الحكمية . أي أن سلاح هذه الحضارة في بدايتها لم يكن أكثر من قيم شعرية وحكايات بطولية خيالية وأقوال عامة في الأخلاق والعلاقات الاجتماعية ومع ذلك فقد ظهرت أول محاولة فلسفية علمية في شخص طاليس ثم في شخوص عدد لا سبيل إلى استيعابه الآن من المفكرين الذين اختلط تفكيرهم بمجموعة من الخيالات واتصل علمهم بجملة من الأساطير. لكن تقدم الأجيال من بعدهم بقي مستمراً حتى ظهر سقراط ومن بعده أفلاطون ثم أرسطو الذي سجل في كتبه قمة التقدم في الحضارة اليونانية.

ولم تمض بعد أرسطو فترة من الزمن حتى بدأ التراث الحضاري اليوناني يفقد روح المبادرة وتضيع منه المكاسب السابقة ولم يستطع التطور العلمي أن يقدم أي عون للحيلولة دون تهافت هذه الحضارة وسقوطها السياسي العسكري والاقتصادي والاجتماعي أمام الهجمة الرومانية التي لم تعط الكثير في ميدان التقدم العلمي .

****

فاذا انتقلنا إلى الحضارة العربية الاسلامية لم نجد سلاحاً لنهضة أصحابها غير تراث علمي فقير جداً . ونحن نسميه تراثا علمياً في شيء من التجاوز . ومع ذلك فان العرب أصحاب هذه الحضارة العالمية قد حققوا الانجازات

المادية والادبية بفضل الايمان والمغامرة الجريئة وروح الطموح والاستعداد للتعامل مع المخلوقات بعقول لم تكن قد تحررت نهائيا من روح الاسطورة القديمة.

وقد كان من نتائج هذه الحماسة المؤمنة والمغامرة الجريئة نشوء الدولة التي تهيمن على أكثر المناطق المعمورة في العالم وظهور أجيال من المشرعين والمفكرين ورجال السياسة وعلماء الرياضة والفلك والطب والجغرافيا والتاريخ وعلوم الطبيعة والكيمياء والفلسفة والأدب نثره ونظمه وغير ذلك من الأنشطة الفكرية والعلمية حتى اذا راجت اسواق العلوم والأدب وظهرت دولة العمران والسياسة متمثلة في ألوف من المثقفين المنتشرين بين حدود الصين وجنوب فرنسا بدأت حضارة هؤلاء القوم تفقد روح المبادرة وتخسر طاقاتها المبدعة. وبدلا من أن يكون التطور العلمي سدّ أمام الانهيارات المتتابعة فقد هوى بدوره مرونته وأصالته وجمد صورة ثابتة فقد معها روح المعاصرة .

****

واليوم إذ نشاهد معالم حضارة الغرب ونستعرض المراحل التي اجتازتها منذ ثلاثة قرون ونيف يبدو لنا أن العوامل التي كانت من وراء هذه المعالم هي الحماسة في الايمان بالتقدم وروح المغامرة وإرادة التغيير وتبني منهج واقعي في التعامل مع الطبيعة والكون وقد كان من نتائج هذه العوامل المذكورة أن معارف علمية جديدة قد ظهرت وأن علوماً متميزة قد نمت وارتفعت معالمها تحققت بها تحولات مادية وتنظيمات وانجازات إدارية وظهرت معها أمبراطوريات اجتاحت مناطق العالم كله تقريباً على درجات متفاوتة من الهيمنة والسلطان .

لكن هذه الحضارة رغم ما حققته من تقدم علمي ، ورغم أنها اليوم تتحرك فوق قمة الدنيا فان مكاسبها العلمية الواسعة لم تحقق في ميدان العلاقات السياسية والأوضاع الاجتماعية والمشكلات الناجمة عن هذه وتلك الانجازات الكفيلة بفرض الاستقرار في العالم المعاصر وهي تحاول الحفاظ الا على مكاسبها إما بخوض حروب عالمية من مثل الحربين العالميتين الأولى والثانية وإما بإشغال حروب اقليمية للقضاء عبثاً على التناقضات التي تسببت عنها .

والثابت أنها تخوض حروباً صليبية للحفاظ على توازن يتجاهل حقوقه الشعوب النامية ويصر على تجميد مسيراتها بكل سلاح وبأي ثمن وعلى ذلك فان التقدم العلمي لم يحقق الارتقاء الذي يحلم به البشر اللهم إلا إذا اعتبرنا أن

شعوب هذه الحضارة هي البشر وحسب وأن ألوف الملايين من الناس الذين لا ينتمون إليها هم الخامات التي تتعامل شعوب الحضارة الغربية معها على أساس أنها مجرد أشياء لرفاهية أفرادها وحسب.

****

وخلاصة القول في قصة (ارتقاء الانسان) التي وصفها الدكتور جاكوب برونوفسكي أنها قصة المكاسب المادية والثروات التي تحققت لأصحابها بفضل الكشوف العلمية في عالم الفضاء أو فوق سطح الأرض أو في أعماق البحار. ومع ذلك فإن انطلاقة مايسمى " ارتقاء الانسان " لم تكن نتيجة التطور العلمي بل كان التطور العلمي هو ثمرة لهذه الانطلاقة .

فالتطور العلمي ليس هو الذي اطلق طاقات الشعوب الغربية ولن يكون في ضوء تجارب الحضارات السابقة الضمانة التي ستحول دون انهيار هذه الحضارة عندما يأتي الزمن المقدر لوقوع هذا الانهيار.

****

لقد كان جديراً بالدكتور برونوفسكي أن يقلب معادلاته وأن يجعل من السبب نتيجة من نتائج الارتقاء وبالتالي أن يقترب من العوامل الحقيقية التي تتحرك بفضلها مسيرات التقدم .

إن التجارب التاريخية تفرض علينا الاعتراف بوجود دورات حضارية تبدأ بعوامل انسانية وتنتهي بعوامل انسانية أيضاً .

والعوامل هذه لا تخضع لمقاييس العلوم المادية بل تتصل بطبيعة الطاقات الكامنة في أفراد أو جماعات معينة والطاقات هذه لا تضيع صنعا ولا تستورد من مصدر معين غير الانسان.

والثابت أن روح المغامرة التي ترتبط أو تستضيء بقيم وأطماح فكرية تتمثل كما يقول بعضهم في ظاهرة البطولة " أي ظاهرة التحدي الهادفة الى اقتحام المجاهيل وإرادة الغلبة والرغبة الشديدة في الهيمنة والسلطان ".

والجدير بالذكر أن ظاهرة البطولة هذه تتمثل في جملة من الأنشطة الفكرية والجمالية والخلقية أنها هي التي تخرج صاحب المواهب الفكرية كما تخرج أصحاب المواهب الفنية والخلقية بفضلها تتفجر كل الطاقات الكامنة على نحو اختلفت ازاء فلاسفة في تعيين أسبابها.

من هؤلاء المؤرخين من يؤكد أن لكل شعب أو مجموعة من الشعوب دورات شباب وشيخوخة وهي من الشعوب كما تكون الحياة والموت من الأفراد اي أنها تخضع لقوانين فوقية لا يزال العلم الانساني عاجزاً عن استيعابها واكتشاف أسرارها والتصرف بفضلها في صنع الحياة والموت . وهم لم يقفوا عند هذا التفسير وحسب بل قرروا أن لكل دورة فترة من الزمن لا تتجاوز ثمانية قرون عند بعضهم.

كما أن هؤلاء المؤرخين من يعتقد أن الحضارة هي حصيلة التحدي والاستجابة وأن استمرار الحضارة مرهون باستمرار هاتين الظاهرتين .

وهناك تفصيلات كثيرة أخرى تدور كلها حول هذا الموضوع ولكنها تعجز عن النفاذإلى أعماقه ويبقى مؤرخو الحضارات أمامها في حيرة مطبقة.

****

ونحن بدورنا لا نزعم أن في وسعنا اختراق الحدود الخارجية لموضوع " ارتقاء الانسان " لكننا مرغمون على التسليم بأن نشوء الحضارات اشبه ما يكون بسباق الخيل لكل منها شوطها الذي تجتازه حتى إذا بلغت نهاية الشوط استنزفت الوقائع طاقاتها المبدعة وسكنت في مكانها شيئاً فشيئاً وعجزت كل الجهود المبذولة لتغذيتها بمدد جديد اللهم إلا في حدود قوانين التحرك الحضاري الذي كشفت تجارب الماضي عن مواطن انطلاقه أو توقفه.

****

قد يقول بعض الناس : ان في هذا التفسير ما يثبط الهمم ويضعف العزيمة ويخنق روح الطموح عند الأجيال التي تعاني من ضغوط التخلف أو عناصر التآكل الداخلي في كل بنية حضارية.

إن موقفنا من هذا البعض كما يكون موقف الطبيب من ذوي المريض الميئوس من شفائه فالطبيب لا يستطيع أن يوقف عمل قوانين الحياة والموت لكنه يعمل في حدود هذه القوانين وحسب.

والجدير بالذكر أن ظاهرة التعاقب بين الأمم والشعوب قد وردت الاشارة إليها في كتاب الله في قوله عز وجل : " وتلك الأيام نداولها بين الناس ". تعني تعاقب النهوض والسقوط والشباب والشيخوخة ... والابداع والتقليد ... على مستويات الافراد والجماعات .

واذا كان للعلم دور فهو التحرك في حدود قوانين الكون والطبيعة والحياة . فاذا حاول أن يتجاهلها لم يعد علما ابدا, غاية ما يحققه هو الاستعانة بهذه القوانين لتحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من المكاسب .

****

إن تقرير هذه الملاحظات ضروري جداً بالنسبة لنا نحن العرب والمسلمين بصورة خاصة وللبشر بصورة عامة . إن علينا من أجل تخطيط إيجابي بناء أن نستوعب هذه القوانين من ناحية وأن نستبين ما اذا كنا قادرين على ممارسة البطولات التي تترجمها حماسة المؤمن وجرأة المغامر والرغبة الجادة المصممة في الكشف عن المجهول والتغيير.

وفي تقديرنا أن تجارب القرنين الماضيين قد كشفت حتى اليوم عن نموذج المقارنة والايمان المتحمس والرغبة في التغيير وان لم توفق حتى اليوم إلى اكتشاف المصادر الحقيقية للنهضة والاتفاق عليها.

ويضاعف ثقتنا بالمستقبل واحتمالاته الطيبة بالنسبة لثقتنا كمجتمع يمثل مسيرة متفردة ان كل المؤامرات والموجات الاعلامية التي تحاول الانحراف بنا عن تراثنا الروحي وأصالتنا في الخلق والابداع لم تستطع رغم كل شيء أن تقتل فينا روح الأمل وإرادة الحياة.

وفي وسعنا أخيراً أن نختم القول في علاقة التطور العلمي بارتقاء الانسان بالقول : بأن ارادة الارتقاء شيء وراء التطور العلمي وفوقه. فالمعرفة التي لا تحققها ارادة الارتقاء أعجز من أن تقوم بدور حضاري أصيل. انها لا تعدو أن تكون سلعة للاستهلاك وحسب ، ولعل مشكلتنا الكبرى حتى اليوم هي أننا أمة تستهلك ما يضعه الغرباء وتتردد أمام المسؤوليات الثقيلة لصنع السلع فكرا كانت أو سلاحاً أو غذاءً أو عمارة للأرض.

****